مرح
اللون والكلمة

شاكر الأنباري*

مقدمة

يظل الفن لغزاً لبني البشر ، على مر العصور . فمن الصعوبة بمكان ، وضع قواعد وشروط لممارسته وفهمه وتقييمه ، سواء كان ذلك في الأعمال الأدبية أو الفن التشكيلي أو العمارة أو الموسيقى . هنالك جذوة غير مرئية تتخلل العمل الفني ، هي التي تنسج تفاصيل خلوده . وهناك استحالة وضع نظريات لتقييم الفن وتذوقه والحكم عليه حكماً نهائياً ، وفي الفن التشكيلي خاصة . هل الفنان التشكيلي ضمير عصره ، عليه أن يتمثل هموم الناس ويصبها بهذا الشكل أو ذاك في لوحاته : ملاحم وقصصاً وحكايات لها ملامحها في الخطوط والكتل والألوان والفراغات ؟ وهل يكفي اللون ، باعتباره مفردة الفن التشكيلي ، ولما فيه من تعبيرية تعكس الحزن والفرح والقلق واليأس والمتعة ، كي يكون الأداة والهدف ، لتعبير الفنان عن عصره ؟ وماذا عن الهوية ، التي تهدَّد بلاشك ، حين يصبح الإنسان كونياً ؟ هل وصلنا يا ترى إلى مرحلة الفنان العالمي والأديب العالمي ، التي جاءت عبر تطور موضوعي للبشرية ، فأصبحت المعاناة واحدة ، خاصة وأن ثمة هموماً توحد بني البشر في هذا الوقت : خطر حرب نووية ، خطر تلوث المصادر الطبيعية وتلف الطبقة الواقية لخلية الأرض ، وخطر سيطرة الآلة على الإنسان ، وانتشار الأمراض الغامضة كالايدز . وما إلى ذلك من إشكالات كونية . لكن هل تغيّب تلك الأسئلة مخاطر أخرى تهدد الشعوب وفنانيها كخطر إلغاء الثقافات الصغيرة واستغلال الإنسان المتطور تكنولوجياً للمتخلف تكنولوجياً وتهديم العالم الروحي لبني البشر والقمع المؤدلج ومصادرة حقوق الشعب ، بأبسط حاجاتها الإنسانية ، والهجرات والاصطدامات الحضارية واللغات المهيمنة والعنصرية واهتزاز القيم الروحية والمفاهيم الاجتماعية نتيجة نقلة مفاجئة ؟

كيف يتعامل الفنان العربي ، المغترب عن محيطه الثقافي ، مع أسئلة مثل تلك وأخرى شبيهة ؟ لاسيما وأنه يخضع يومياً لمعضلة العلاقة بين الوطن الأم والوطن المُضيَف ، وجوده كإنسان متمايز عن المحيط بلونه ولغته وذائقته ، ووجوده كفنان . تلك الأسئلة وتلك الهموم ، هي التي دعت إلى وضع فنانين عربيين يعيشان في المنفى ، تحت مجهر المعاينة ، للتعرف أكثر من النقد الأكاديمي ، لمغامرة الكتابة في الفن ، أكثر من الكتابة عن الفن ، ولمزاوجة الصورة بالكلمة ، لقارئ لابد أن يكون ذا حس أدبي وفني ، هو الذي يقيّم التجربة أولاً وآخراً .

* كاتب من العراق

الفنان العراقي
عباس الكاظم

ولد الفنان عام ١٩٥٤/ العراق . تخرج في معهد الفنون الجميلة / بغداد/ عام ١٩٧٦ ، وواصل دراسته في روما حتى عام ١٩٧٨ ، ثم استقر بعدها في كوبنهاغن ، التي درس فيها الكرافيك والرسم ، وكان أن أقام أول معارضه في بغداد وعمره ١٧ سنة . عرض في إيطاليا وهولنده وبريطانيا ، إضافة إلى تواصل معارضه في المدن الدنماركية ، ولوحاته تحمل أسماءها دائماً : خطة لتغيير الأشياء ، أعيش مع الضوء ، فصل الدموع ، بين عينيك وبيني ، وكأن الفنان يضع أسماء لكائنات غامضة ، يجهل هو أيضاً هوياتها . كائنات العالم السفلي وقد اشرأبت بألوانها وخطوطها وهيئاتها ، لتختبر حساسية العين والذهن . كأنه خائف من الوحدة ، من الوقوف مع لوحاته وجهاً لوجه ، فهو يستمد العون من عيون المشاهد ، ويصبو إلى مشاركة وجدانية مكتنزة بالحرارة .

إلهام

الطبيعة بغناها وتعدد ألوانها واحدة من أهم مصادر إلهام عباس الكاظم ، ففيها يجد الهارمونية والجمال والتناسق ، وتعكس لوحاته التضاد بين النور والظلام ، حيث الترابط بينهما خالد ، وقد أعطاه الشمال ضوءاً آخر يختلف كلية عن ذلك الذي دأب على رؤيته في السعف والرمال والقباب ، لذلك نراه اليوم يمزج الألوان الشرقية بالتقنية الإيطالية وقد سكب الشمال عليهما غلالة من مزاجه المتقلب .

إن القناعة بهارمونية الوجود الطبيعي متأتية من التآلف الأخاذ بين الشجر والماء ، الطيور والفضاء ، الإنسان والحركة ، متجسدة بالتغير غير المنقطع لنسيج الطبيعة ، وكأن المرء أمام لوحة فنية هائلة تتشكل كل لحظة بخيالات جديدة ومعانٍ جديدة . وحين يُعبث بذلك الهارموني ، بما فيه الإنسان ، يبدأ الفنان بالسقوط في أزمة الروح ، وحمى البحث عن ارتكازات داخل النفس والجسد ، فيصغي الفنان إلى نفسه ، ثم يهرب إلى اللوحة ، إلى مخبر الشواطئ المكتنزة والمياه السرية ، مفتشاً عن جوهرته اليتيمة ، التي يضيء بنورها أنفاق الظلمة .

تتشكل الأزمة الروحية على شكل طبول وصناجات وموسيقى غير مفهومة ، تلازم الأذن الداخلية بإلحاح ، تنخس اليد والعين والذهن ، إلى حيث القماشة أو الخشبة أو ورقة الرسم البيضاء ، ليبدأ التخطيط الأول والمغامرة المتوحشة مع الألوان . المغامرة التي لا يدرك الفنان محطتها النهائية . لا تكتمل اللوحة إلا مع الزمن ، مع مروره الشبيه بالرمل . مع الاسترخاء الداخلي بعد عبث الألوان وزفير الأحاسيس .

مرآة للوقت

شلال يتحدر من سفح جبل ، زخت
أمواهه غيوم شاردة فوق قمم سرعان ما تختفي
مخلفة وراءها شذرات شاسعة من الأزرق ، وسواحل بعيدة
الغور لا يصل نهاياتها البصر أو البصيرة : شلال كلي علي بك ، شلال
أحمد آوه ، شلال قنديل ، شلالات الروح إذ تسيح شريدة في الوديان والكهوف ،
والشلال الذي من ضياء ينم عن بشر أو بعض بشر . إلى اليسار حافة حادة تؤطر وجهها أو
تبتدئ سفحاً ، وبقع محروقة كأنها شعر امرأة غافية أو قتيلة ، وإلى اليمين كهوف غامضة رسم على
جدرانها البشر يوماً طيوراً لأحلامهم ، غزلاناً لأوهامهم ، كراكي لخيالاتهم ، وعليها شاهدوا ظلالهم تتراقص مثل
شياطين منفلتة من قمقم . أشجار من العفص والاسبندار ، جذور عتيقة مرت على السنين دون أسف ، لقد شهدت المعارك
والهجرات والخيانات .
جذور شهدت كثبان ثلج تنيخ عليها أو بساتين نرجس تنفرش فوقها .
شلال وشجرة جوز وفم كهف وحافات جبلية وألوان كأنها دماء وسهول وهضاب وقبضة من الخيال
والحلم ، تؤلف ذلك الوجه الكلي ، عشتار الجبل ذات العينين الضابحتين حزناً .
مرآة الوقت التي ترينا الماضي وتعبر بنا الحاضر ، العصي على الفهم ، علّنا
نستشف ما سوف يأتي ، أو نرى عربات المصير وهي تغذ الخطى نحونا .
كانت رايات ذهبية شقراء مجيدة
ترفرف ، تنقلب وتتماوج على السفح
ذلك ، كل ذلك ، في زمن بعيد
بعيد .

فصد الدموع

يأتون تسبقهم صولجاناتهم وأهلتهم وقبضاتهم المتأهبة لغرس سيف ماض في الجسد ، ألوانهم زرق ، لا يذكرنا هلالهم بالمئذنة ولا صولجانهم بعصا الراعي . نظراتهم موت ، شبابيكهم المنفتحة في الوجوه سبلٌ تؤدي إلى الجحيم ، كلهم يسبحون بالأزرق ، ولا شمعة تضيء الجوار . جذرهم أصفر ، سمة ما تكتظ به الجعب ، رقش يوحي بالنماء وعناقيد عنب وتوت بري ، غير أنها تميل للأسود ، وإلى الخلف شبابيك مغلقة لا تظللها شناشيل أو عقود ، أطر فقط ، غائمة ، خربة ، كأنها آتية من ضباب كابوس . كابوس يملأ الخيال ويهيمن على القماشة والفضاء ، ونحن في حضرة اكسسواراته نتأمل ونرتجف . هل عشنا ذلك الكابوس ذات ليلة ؟ هل نتذكره جيداً ؟ أم أنه كامن هناك في الأعماق السفلى من الذاكرة ، في القاع القصي من أرواحنا .

معلومة

لا ينتسب الكاظم إلى مدرسة فنية بعينها ، ومن الصعوبة تحديد اسم لاتجاهه الفني ، غير أنه يتناغم شيئاً ما مع التجريدية التعبيرية ، هذا إذا عرفنا أن التجريدية تشعبت إلى فروع كثيرة كالتجريدية التكعيبية والهندسية والواقعية والرمزية ، إلخ ، وجاءت نشأة التجريدية التعبيرية في أمريكا على يد المهاجرين البولنديين والهولنديين ، من أمثال كوركي وبولاك ، وكان الغرض منها خلق هوية أمريكية للفن التشكيلي .

يفضل الفنان عباس الكاظم الرسم بمادة الأكريليك بدلاً من الزيت ، فهو أكثر مطاوعة ، واللوحة المرسومة به أطول عمراً ، ولا يحتوي على مواد كيماوية كما هو شأن الزيت . والأكريليك مادة بلاستيكية مصنعة أرخص من الزيت ، وبالنسبة لفنان كعباس يستخدم اللون بكميات كبيرة ولوحاته ذات أحجام ضخمة ، يعتبر الأكريليك المادة الملائمة للوحته . وقد تأثر في بداية حياته الفنية بالهولندي فان كوخ ، بعد أن أهداه أبوه كتابه المعروف ، رسائل إلى أخي ثيو ، حيث قرأه بشغف وكان يقلد لوحاته الموجودة في الكتاب . وبعد دخوله المعهد أوصاه أستاذه رسول علوان بقراءة رائد التعبيرية الألمانية ، الفنان كوكوشكا .

يمارس الفنان عباس عمله التشكيلي بالألوان المائية والكرافيك والتصوير والسيراميك والحفر على الخشب ، يجد نفسه منغمراً بواحدة منها حسب المكان والدافع وتوق التجدد والتغيير ، وهو يقول إن على الفنان الإلمام بعدد كاف من وسائل التعبير ، لكي يستطيع تنفيذ فكرته في واحدة منها إن تعذر تنفيذها بالأخرى .

■ سؤال : كثير من الأعمال الفنية العراقية ، ينظر إليها المرء فلا يجد فيها سمة تعبر عن هويتها المكانية والثقافية ، بينما يحس الناظر إلى فنان مكسيكي أو أفريقي أو هندي ، بأنه لا ينتمي إلى كوبنهاغن أو لندن أو نيس ، أي أننا أمام إشكالية الهوية في العمل الفني ، وتبعية بعض الفنانين للمدارس الغربية ، تقنية وتنظيراً وحساسية .

■■ جواب : الرسوم المكسيكية الشعبية ، ذات المفردات الفنية الواضحة ، رسوم مميزة تدل عليها محليتها ، بعد تراكم لتلك المفردات جرى في الزمان والمكان ، ساهمت عوامل جمة في تكوينها . وينطبق هذا أيضاً على فنون الفايكنغ في اسكندنافيا والفنون الفرعونية والبابلية والصينية . لكن عند الحديث عن الفنان المعاصر ، المفكر الكوني ، ابن امتزاج الحضارات في عصرنا المتشابك ، المضطرب السريع ، فمن الصعوبة مطالبته بأن يكون محلياً أو شعبياً ، فحركة الفن أصبحت حركة عملاقة بأذرع اخطبوطية لم تترك بقعة من الأرض إلا ومدت إليها لوامسها ، وهضم الفنون الشعبية ، أسلوباً وتكنيكاً ولوناً ، عملية متواصلة في ذلك المصهر الكوني . وعندما يكون اللون هم فنان من البيرو مثلما هو لفنان من البصرة ، فأعتقد أننا سنقع على

اكريليك على القماش

أكبر من الفم هي الصرخة ، يطلقها جسد يسبح في عاصفة ، وأسفل اللوحة تنضفر المكونات الأرضية لعالم أرضي الرغبات والنزوات والكثافة . في الأعلى شفافية الألوان وسط عالم الفكر والخيال ، العالم الضوئي ، البعيد والقريب ، في الوقت نفسه . وما بين عالمين تقف الرقبة برزخاً وجسراً ، يربط السماء والأرض ، مثلما الرسالات السماوية والفنون والسحر والهواء .

جسد هو الأجساد كلها ، لا ينبئ عن ملمح ولا يشف عن سمة ، الفم فاغر ، من صرخة الألم ، والرعب ، والدهشة ، وصرخة العرفان حين تقع العيون على ما وراء الستر . حين تتجلى الحقائق الكبرى بعد رياضة شاقة . أفعى الأبيض ترقص حراشفها على الجسد والرأس ، معلنة حضورها : دورة الفناء منذ الخليقة ، وقد تجلى فيها كل ما قرأناه وبجلناه ونسيناه . هذا الفناء المنتظر نتخيله على شكل صفحة بيضاء تشبه غيبوبة ، أو موتاً أو فراغاً ، تتحول فيه الكائنات من حجر وبشر وحيوان وشجر ، إلى ضوء ، فقط ، يسري من نجم إلى نجم ومن كوكب إلى آخر ومن قمر إلى قمر ، على مشارف الكون الشاسع ، الذي يرتجف فيه الإنسان من الخوف والوحشة والجهل .

سمكة سوداء

تعبث الفرشاة باللون مثل طفل صغير يكتشف محيطه الضيق .

يصير الأسود فراء لقطة ، أملس مشعاً ، يعكس مساقط الأضواء المتبعثرة عليه من ثقوب نافذة ما .

يتمطى الأسود على الورقة ، ثم يطغى على الأحمر ، ويجاور الأخضر ، ولا يلبث أن يلفع الوردي كما عروس تسري على جمل في صحراء الفكر . ولا يلبث الأسود أن يتشظى إلى بقع كأنها جزر معزولة ، وينشطر ليصبح لوامس مشعرة ، تخفي الأربعة المؤلفة من عناق سمكتين ، مروحة للعتمة ، دوامة في سيل عاجّ بالغرين ، غيوم زرق في فضاء سحري ترتسم في العُلى جبالاً ووديااً ، أشجار سنط ودلب ، ديناصورات وماموثات ، سرعان ما تلتهم بعضها أو تتداخل في بعضها .

نحن إزاء طبيعة ثانية ، كل ما فيها محض أوهام .

أعداد وأسماك وجبال وأفيال ، ترقص برهة أمامنا ، على مسرح اللوحة ، لكنها تغير أشكالها ما أن يغمض الجفن أو يسرح الذهن خارج المستطيل ، لتعود بعد ثوان تمارس الخدعة نفسها .

خدعة ملونة لكنها لذيذة .

المسرح مسرح ألوان يبغي إضاءة الروح وقذفها إلى جنة المرح .

ألوان مرحة تصوغ أشكالاً مرحة لعيون تتطلع إلى المرح والقصف .

نتاج ذي سمات مشتركة ، قد استثمر آخر ما أبدعته التكنولوجيا من طرائق لونية ومواد أولية .

إن الطيور المرسومة على الإزار الذي جلبته لي أمي من العراق ، والتكوينات الهندسية المشعشعة الأنوار في ملابس الهنود الحمر ، وآخر ما أخرجته مراسم أوربا ، تتوحد وتتقارب حسياً ، في عدسة العين الرائية ، حين تشرق الألوان وتستولي على الأحاسيس ، لافّة البشر بطلسم سحرها . فالكرة الأرضية تبتكر ألوانها ، لبشر كلهم أبناؤها . شجر واحد ومياه واحدة وسماء زرقاء تُظل بني آدم ، وفي كل كوني لمسة من المحلي والعكس صحيح ، ولا أحد يجرؤ على تصنيف بيكاسو ، من أي بلد أو قارة .

إضاءة

صراع الفنان المغترب صراع من أجل بقائه الجسدي ، كإنسان أولاً ، أي الاعتراف بوجوده ، ثم تقبله ضمن لحمة المجتمع الجديد . وتكاد أن تكون الظاهرة تلك ، ظاهرة يومية ملازمة لحياة كل شخص هنا في أوربا . في مجتمع راحت العنصرية تنتشر فيه مهددة كل القيم الحضارية التي نادت بها الدساتير والفلسفات الإنسانية والثورات . الفنان غير مرغوب به ، بسبب اللون والدين والخلفية الاجتماعية ، والصراع اليومي هذا يفقده كثيراً من طاقاته الإبداعية ، خالقاً عنده حالة دائمة من الإحباط والانكسار واليأس . علماً أن العنصرية بمختلف تجلياتها ، تمتد أيضاً في الأوساط الفنية والصحافية ، وتتجسد في تجاهل الأعمال المبدعة والتغطية عليها ، أو ايصال رموز ثقافية مسطحة تابعة ، لإقصاء الأكثر عمقاً وتشبثاً بالهوية الحضارية . على أن هذا لا ينفي وجود التجمعات الثقافية والفنية المتعاطفة مع الثقافات الأجنبية القاطنة في الدنمارك أو أوربا . وعن طريق تلك الجهات يتم تنظيم المعارض والتظاهرات الثقافية . أجواء مثل تلك تجعل الفنان يحس ، مهما كانت قناعته بالعيش في أوربا ، أنه مقتلع من مكانه الأليف ، مزروع بتربة غريبة ، عدائية تهدد جذوره الروحية وتشعره بالرهبة والخوف من المجهول : المجهول القادم المتمثل بصعود اليمين الفرنسي وتصاعد قوة النازيين الجدد في ألمانيا واسكندنافيا ودخول الفاشيين في الحكومة الايطالية .

سمكة سوداء

الفن الدنماركي

الفضاء الفني للدنمارك فضاء متلق للجديد ، تصله أمواج متعاقبة من المدارس القادمة من فرنسا وألمانيا وإسبانيا ، ثم أمريكا لاحقاً ، فهو لا يمتلك خصوصية واضحة ، أو تأثيراً ملموساً في الحركات الفنية الأوربية . إن خصوصيته جزء من خصوصية الفن الاسكندنافي ، تتمثل في عتمة الألوان والوحدة الروحية والحذر في المغامرة والاهتمام بالبيتي والأنثوي والأليف ، بعيداً عن قساوة الطقس وجحيم الثلوج الشتوية وغموض الطبيعة القاسية .

(لا يوجد فنان دنماركي يعيش على إنتاجه الفني) يقول الفنان عباس الكاظم ، الذي مارس أعمالاً كثيرة لا علاقة لها بالفن : عمل في دور العجزة ومصحات المجانين والمتخلفين عقلياً ورياض الأطفال ومعامل الصلب ، كي يوفر المادة الأولية كالمرسم الصغير والألوان والقماش والتفرغ من حين لآخر . وهذه الحالة الممتدة بين لوحتين ، الفترة الزمنية بين العمل وتنفيذ اللوحة ، فترة زمنية طويلة ، تستغرق منه الجهد والوقت والطاقة .

إن الثقافة الدنماركية ، ويقع الفن في القلب منها ، ذات إشكاليات كبيرة ، لتأرجحها بين الغزو الثقافي الأمريكي ، بنبرته الاستهلاكية ، الخاضع لتقاليد السوق ، وبين صرامة التقاليد الفنية الأوربية النخبوية ، المتطورة تطوراً طبيعياً ، المنبنية على فكرة المركزية الأوربية .

فوق ذلك ، كان للطبيعة القاسية تأثير ضاغط على الفن ، ابن الضوء ، لهذا نرى العتمة والوحدة والبرودة في بلاد تخلو من الشمس وينتهي كثير من فنانيها ومثقفيها ، إلى مصحات عقلية ومستشفيات مجانين وانتحارات غير معقولة وهجرات تقودهم إلى الجنوب ، حيث الضوء وبيارات العنب وحقول البطيخ والنبيذ المعتق .

الفنان التشكيلي عباس الكاظم - مرح اللون والكلمة